أشتات من فوضى الكلم ....

د. إبراهيم السامرائي

جهل المعربون والكتّاب حدّ الكلمة فلم يضعوها موضعها، وربما أخذوا بالجديد الوافد فذهبوا بها يمنة ويسرة. ولو أنهم سعوا الى هذا الضرب من المعرفة لأدركوا «ان لكل مقام مقالاً». وأنت واقف في «الصحف» على «الغرائب» كل يوم، وكأنّ الكتابة في «الصحف» تقتضي الأقل من النَّصَب. ان لغة «الصحف» عربية خاصة ضاع فيها حد الخطأ والصواب، ولكن لهذه العربية خطراً خاصاً، ذلك أنها اكتسبت الشيوع والسيرورة، حتى انك لتجد «خطبة» صلاة الجمعة قد نالها شيء من هذه العربية حمل الضيم عليها. وقد كان يفترض في هذه العربية ان تحتفظ بطابع خاص، وأن تكون بمنأى عن الوافد الجديد، وأن يكون لها من لوازمها ثوابت تؤدي الغرض.

ان هذا لا يدخل في باب الخطأ والصواب، ولكنه يدخل في المسيرة التاريخية للكلمة فيسيء اليها. أترى ان لغة «الخطبة» في غنىً عن أن تشتمل على قول أحد الخطباء مثلاً في الحديث عن طائفة من أهل هذا العصر: «إنهم يذرّون الرماد في العيون»، و«إنهم يذرفون دموع التماسيح»، و«أن الأكثرية الساحقة منهم» لا تقيم حدود الله. إن هذه لنماذج من القول قد أبت العربية أن تحس فيها قربى منها، ولو كان ذلك على طريق الولاء. ان هذا الأدب الجديد لا يدخل في باب الخطأ إن كان في مقالة سياسية أو اجتماعية، ولكنه جنوح بل نكسة ان يكون في أدب «خطبة» للجمعة.

ربما أُخِذَ نفر من المشايخ الجدد بفتنة المعاصرة، فلم يشعروا بهذه الغرائب التي وفدت الينا فكانت من العربية المعاصرة. وما أريد أن أعرض لشيء يتصل بهؤلاء المشايخ الذين أقبل عليهم الجمهور يستمعون الى كلماتهم الطيبات فيؤخذون بما فيها من فصيح ودارج. وكأن هذا الخلط في الكلم ضرب من مواعظ العصر. أترى أن أحدهم، وهو ممن يستمع اليه خلق كثير يضيق به حرم المسجد، فينفسح سامعوه في

المنفرج الفسيح من الأمكنة، قال: ان هـذه «المعادلـة الصعبة» تفضي الى نتـائج وخيمة، وقليل ما هم الذين يدركون «معادلته الصعبة». وذهب آخر الى القول: ولم يبق لأحدهم إلا «الورقة الأخيرة» يلعبها ليدرك ما يريد.

أقول: تعالى الله عما نهرف بما لا نعرف علوّاً كبيراً.

ثم ماذا؟

إنه حشد كثير من أدب جديد لا يشعرك بالعافية، وأي عافية تنالها وأنت تقرأ في صحيفة الثورة ليوم الخميس (٢٥/٥/١٩٨٩) في الصفحة الأخيرة:

«إنتاج «معاني القرآن» الكريم تلفزيونياً».

أقول: إن «معاني القرآن» باب من أدب القرآن، صنف فيه اللغويون القدامى طائفة من تصانيفهم منها «معاني القرآن» للفرّاء، و «معاني القرآن» للأخفش، وغير هذا. فهل لنا ان نستعير لـ «معاني القرآن» كلمة من مصطلح المسرح والسينما والتلفزيون، وهي «الانتاج»؟ ان هذا لا يدخل في باب «الكبائر»، وليس هو كفراً، ولكنه خروج على أدب الذكر، وخروج على حرمة الكلمة التي تقتضي الكاتب ان يعرف لها مكانها الذي تسعَد فيه.

اذا كان لي ان استعمل «الإنتاج»، وهو من مصطلح الفن في عصرنا، في الكلام على «معاني القرآن»، كان جائزاً أيضاً ان استعمل مصطلح «السناريو» في الموضوع نفسه!! اللهم إني أعوذ بك من سوء تشقى به نفوسنا.

وقرأت شيئاً يندرج في هذا الذي ذكرت في جريدة الثورة، وهو أن أحداً ممن يتعاورون على كتابة مقالات الصفحة الأخيرة قد ذكر في أول مقالته ما معناه:

كان الأمر في هذا كيت كيت، وتم ما أراد، و «لا هم يحزنون».

أقول: لقد ختم الكاتب كلامه بقوله: «ولا هم يحزنون»، وكأنه جهل انها شيء من آيات عدة في جملة من السور هي البقرة وآل عمران والمائدة والأنعام والأعراف ويونس والزمر والأحقاف. وان عبارة «ولا هم يحزنون» في الآيات في تلك

السور، شيء يقتضيه معنى الآية ونظامها. على حين أنها في عبارة الكاتب وكثير غيره تتمة لا يقتضيها المعنى ولا السياق، ولا النظام، إذ لم يكن في نظام «المقالة» نظام للفواصل على نحو النسق البليغ الممتع في أدب القرآن.

ثم ان الكاتب قد يكون جاهلاً ان قوله: «ولا هم يحزنون» من أجزاء آيات عدة في سور عدة. وهذا أعظم أيضاً.

ومن هذا الجديد الذي تساهل فيه الكتّابُ فاقترفوا الإثم، قولهم مثلاً:

إن مقولة فلان «ما أنزل الله بها من سلطان».

أقول: ان قولهم: «ما أنزل الله بها من سلطان» بعض الآية الثالثة والعشرين من سورة النجم وهي قوله تعالى:

﴿إن هي إلّا أسماءٌ سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾.

إن ما ورد في الآية في قوله تعالى «ما أنزل الله بها من سلطان» شيء يقتضيه الغرض من الآية، ذلك ان الذي جاء به المشركون هو أسماء سموها هم وآباؤهم، لم تأت في أدب القرآن، ولم تكن من دين الله.

فهل لنا ان نقتطع هذه التكملة من حيّزها فنستعملها في كلامنا في سياق بشري لا يتصل بأدب القرآن؟ إن هذا لتجاوز عظيم وابتعاد عن العلم.

وأذكر أني قرأت في إحدى الصحف الافريقية العربية ان احدهم استشهد فقال: كما في قوله تعالى: «وجعلنا لكل شيء سبباً»، وهذا قول الكاتب وقول آخرين في الصحف، وليس قول الله تعالى. وهذا يدخل في باب العبث في الكلم الذي بدأنا به هذه الأشتات.

ومن هذا أيضاً قولهم في تساهل:

وقد انتهى الجدل والنزاع، والله يحب المحسنين».

أقول: وقولهم «والله يحب المحسنين» مأخوذ من بعض آيات وهو قوله تعالى: «ان الله يحب المحسنين»: وهو شيء مفيد في سياق الآية كقوله تعالى مثلاً: «فاعف

عنهم واصفح إن الله يحبّ المحسنين»، ومثل هذا في آيات أخرى. ولكننا نقتطع هذا فنلصقه في كلام يأباه، ولا تتم به فائدة خاصة.

وكأن هؤلاء المتساهلين لم يدركوا ان الكلم القرآني قد وضع في موضعه معنىً وسياقاً ونظاماً ومن هذا ما وجدته في مقالة في إحدى الصحف في الأردن قول أحدهم وهو يتكلم على أحوال الناس وغرائبهم فأكمل كلامه بقوله، وقال تعالى: ولله في خلقه شؤون.

وعبارته هذه ليست من القرآن، ولم ترد كلمة «شؤون» في مفردات القرآن، ولكن العبارة شاعت فحسبها من لا علم له بالقرآن، ولم يطل قراءته أنها من الكلم الشريف.

ومن هذا التساهل المخلّ استعمال الكثيرين، وهم يذكرون شيئاً فيختمونه بقولهم: «وما على الرسول إلّا البلاغ المبين».
أقول: ان كلامهم الذي ختموه بهذه العبارة ليس «البلاغ المبين»، وأن ليس لهم أن يستعيروا بعض آية يجردونه من سياقه فيستعملونه في كلام يصح فيه الصدق والكذب. وقد يستعيرون بعض «الحديث»، ولا يدركون أنه «حديث» كقولهم لمن يقوم بالقليل من العمل أو يقول كلمة في شيءٍ حقه كلام كثير: وهذا «أضعف الإيمان». وليس هذا سياق «أضعف الايمان»، ذلك انه دفع المنكر مثلاً «بقلبه» وهو أضعف من أن تدفعه بيدك أو لسانك. واستعمالهم لـ«أضعف الايمان» في غير ما وردت فيه من سياق تساهل في وضع الكلمة في غير موضعها.

ومثل هذا استعمالهم لكلمة «اللهم»، وهي عبارة دعاء، والمعنى كما قال النحاة والمفسرون: يا الله ووصلوا الى هذا فقالوا ان «الميم» عوض من «يا» أداة النداء. وأهل النظر اللغوي التاريخي يرون ان «الميم» أضيفت في اللغات السامية ومنها العربية فأدت أغراضاً عدة منها «التمييم» الذي يقابل «التنوين»، ومنها الجمع، وهو يقابل النون، والكلمة دعاء.

ولكن المعاصرين حرفوها الى غير الدعاء جهلا منهم باستعمالها، فكانت لديهم كلمة زائدة في اسلوب الاستثناء، كقولهم: هذا ما أرفضه اللهم إلا في

الضرورة، ويريدون: عند الاضطرار. ان كلمة «اللهم» في هذا الكلام الدارج زائدة، وليس لها في السياق موضع.

ولنتحول عن هذا الكلم الذي أُسيء استعماله فذهب به الى غير ما أريد منه، الى نماذج جدّت في العربية فأخرجت مخرجاً لا نعرفه في المشهور المعروف من التركيب، ومن هذا قولهم: حبذا لو تحقق لك ما تريد.

لم يرد في العربية الفصيحة استعمال «حبذا» على هذا النحو مَتْلُوَّةً بـ«لو» التي تنصرف الى ضرب من الطلب يقرب من الترجي. وقد استعملت «حبذا» استعمال ما يفيد المدح والذم، ولا «أريد أن أدخل فيها دخول النحاة فأجعلها مركبة من «حَبَّ» و «ذا» فاعلها، ولكني أشير الى استعمالها ليس غير. يلي «حبذا» اسم مرفوع او في محل رفع، قال الشاعر:

لا حبّـذا أنتِ يـا صنعـاء مـن بلد ... ولا شَعـوب هـوىً منّي ولا نُـقُـمُ

واتخذ النحويون من قول جرير شاهداً لهم:

يـا حبّـذا جبلُ الـريّـان من جبـلٍ ... وحبَّـذا سـاكنِ الـريّـان من كـانـا
وحـبَّـذا نَـفَـحـاتٌ مـن يمـانـيـةٍ ... تـأتيـكَ من قِبَـل الـريّـانِ أحيـانـا

وعرف الدرج العامي هذه الكلمة وشاعت في كلام العامة.

وذهب بها المعاصرون في نهج من الاشتقاق والتوليد فصاغوا منها الفعل «حبَّذ» «يحبِّذ»، مقتطعين، وطارحين للألف الأخيرة، بمعنى «استحسنَ» غير بعيد من معنى الأصل «حبَّذا».

ومن هذا استعمال المعاصرين لمادة «لا سيما» التي خرجت فيه عما وضعت له. ومن هذا ما أجده كثيراً من أنها وردت متلوّة بـ«اذا»، يقال: ينبغي الحرص على الشيء لا سيما اذا صار قليلاً. وهذا بعيد عما ورثنا من استعمال «لا سيما» في قول امرىء القيس، وهو من شواهد النحاة:

«ولا سيما يومٌ بدارة جُلجلِ»

ان تركيب «لا سيما» باب من أبواب النحو، رصد فيه النحاة بعد استقراء كلام العرب أسلوباً خاصاً باعتبار متلوّها إن كان معرفة او نكرة.

غير ان اللغة المحكية في عصرنا وقبل عصرنا قد درج فيها المعربون الى الاجتزاء بـ«سيما»، وكأنهم وجدوا ان المعنى المراد حاصل فيها، وهو الدلالة على الخصوصية، وطرحوا «لا»، وهي أمّ الباب. ان باب «لا سيما» في النحو القديم يعطي منزلة لـ«لا» التي تتبع «إنّ» في العمل، مع إرادة الخصوصية في هذا النفي، ثم لحق بـ«لا سيما» شيء آخر يدخل في جوهر استعمالها كالذي عرضنا له.

ولنعرض لكلمة «أبد» التي انصرفت من افادة الدوام والبقاء الى «الظرفية» من الأسماء. وقد صرفت في هذا الظرفية الى الظرف الدائم. وقد يكون لي أن أذهب الى هذا، بل ابتدعه معتمداً على قوله تعالى: خالدين فيها أبداً لهم أزواج مطهرة» (٥٧ سورة النساء). ومثل هذه الآية يتكرر في عدة آيات فقوله تعالى «خالدين فيها أبداً» أريد بها البقاء الخالد. على اننا نجد هذا الظرف يترشّح للمستقبل في آيات أخرى منها:

«ولن يتمنَّونَه أبداً بما قدَّمت أيديهم».

وكلمة «أبداً» بمعناها «الى الابد» وبالسياق الذي نستفيده من قوله تعالى: «ولن يَتمنّونه» تنصرف الى المستقبل.

على ان هذا السياق لن ينصرف الى المستقبل دائما، وذلك اذا قيد بشيء آخر يستفاد من السياق، ومعنى ذلك ان النفي بـ «لن» لا يفيد في دلالته على المستقبل على التأبيد كقوله تعالى:

﴿إنّا لن ندخلها ما داموا فيها﴾ **٢٤** سورة المائدة.

ان عدم الدخول مرتبط بدوامهم فيها، وهذا واضح في النفي بـ«لن» في قوله تعالى:

﴿لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تحبّون﴾ **٩٢** سورة آل عمران.

قلت ان «ابداً» تنصرف الى المستقبل ويأتي السياق مؤكداً هذا، وذلك في قوله تعالى:

﴿ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً، ولا تَقُم على نبره﴾ ٨٤ سورة التوبة.
﴿يرجموكُم أو يُعيدوكم في مِلّتهم، ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾ ٢٠ سورة الكهف.
﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ ٤ سورة النور.
﴿يَعِظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ ١٧ سورة النور.

أقول: إن هذه الآيات ما اجتزىء به من آيات أخرى، خلصت فيها كلمة «أبداً» لهذه الظرفية المستقبلية «الخاصة» المرتبطة بمعنى أبداً، وهو الدوام والبقاء والأبدية.

لقد غُمَّ هذا الأمر على المعاصرين، وجهلوا هذه الدلالة فراحوا يستعملون في نفي الزمن الماضي، وكأنهم جهلوا حقيقية «لم» في النفي، فأنت تسمع وتقرأ من هذا قولهم: «لم أفعل هذا أبداً» وفي استعمالهم هذا لـ«ابداً» جهل لمعناها وخلوصها الى «الأبدية».

ثم ان المعاصرين قد فهموا ان «أبداً» لا بد أن تكون في حشو النفي، وملازمة له، وهي ليست كما توهموا ذلك أنها تفيد الدوام والأبدية في الإثبات والنفي، وأنت تدرك هذا في قوله تعالى: «خالدين فيها أبداً».

وقد يسوقنا الكلام على «أبداً» وحضورها في سياق الجمل المنفية، وذهاب المعاصرين جهلاً الى أنها ملازمة لهذا السياق، الى كلمة أخرى هي «مطلقاً» أو «إطلاقاً». لقد صرفها المعاصرون جهلاً بحقيقتها ومعناها الى حيّز النفي، فهم يقولون: لا أفعله، ولم أفعله ولن أفعلَه مطلقاً أو إطلاقاً.

ان «المطلق» هو ضد «المقيّد»، و«الإطلاق» ضد «التقييد» اصطلاحاً، فقولنا مثلاً: إن «لا» تفيد النفي المطلق، ذلك أنها تنفي الماضي والحاضر والمستقبل، وأن «لن» تفيد النفي «المقيد»، وذلك أنها تنفي ما هو مستقبل ليس غير.

ومن هنا كان قولنا «مطلقاً» او «إطلاقاً» مرتبط بمعناه، فقد يأتي في الإثبات كما

يأتي في النفي. غير أن المعاصرين يجهلون هذه الخصوصيات فيذهبون في اللفظ ذهاباً قائماً على الجهل فيحدث التجاوز، ويشيع الخطأ.

وربما ساقنا هذا أيضاً الى الكلام على «قطُّ»، وهي ظرف زمان، مبني على الضم، لاستغراق الزمن الماضي المنفي كله نحو قول الفرزدق في مدح علي بن الحسين (زين العابدين):

ما قال «لا» قطُّ إلاّ في تشهُّدِهِ لولا التشهُّدُ كانت لاؤه نَعَمُ

ولكن المعاصرين جهلوا خصوصية «قطّ» هذه، فقالوا: لا أفعل ذلك قط، ولن أفعله قطّ. . وهذا كله خطأ وتجاوز.

أقول: مهما جرينا في اللغة في سبيل التطور، وقبلنا الجديد، ووجدنا له باباً من القبول، فإننا محكومون بالقول بالخطأ والتجاوز، ذلك ان في اللغة ثوابت لا يمكن تجاوزها على ما نعرف من سعة العربية وسماحتها.

وقد يقودنا الكلام على «قطُّ» هذه الى النظر في «قط» الساكنة الآخر، وهي بمعنى «حَسْب». وقد قالوا في هذه الأخيرة: انها اسم بمعنى «حَسْب»، وقالوا أيضاً: انها اسم فعل مضارع بمعنى «يكفي» فقالوا في مثلهم المصنوع: «قَطْ سعيدٍ أو سعيداً درهم» بمعنى «يكفي».

أقول: لم يدرك المعاصرون الفَرْقَ بين «قطُّ» الظرف المضموم لاستغراق الزمن الماضي المنفي، وبين «قطّ» هذه الساكنة التي لا صلة لها بالنفي، فقد استعملوا الساكنة في حيز النفي كما استعملوها في الإثبات، مزيّنة بالفاء فقالوا في هذا: أخذت هذا فقط.

وأظلّ مع هذا الكلم القديم الذي ما زلنا نخوض فيه فلم نحتفظ بما كان له، ومن هذا قول المعاصرين: «لم أتسلم رسالتك بعدُ». ان المعنى يفهم بوضوح، وهو أن القائل لم يتسلم الى زمن القول الرسالة. وهذا يدخل في باب النفي المحصور في مدة محدودة.

أقول: وهذا الذي أراده المعاصرون من المعنى يقتضي «لما» النافية الجازمة

بمنزلة «لم» ولكن هـذه ايضاً تقلب المضـارع الى الماضي وتنفيـه الى الحال أو زمن التكلم، قال تعالى:

﴿ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخلِ الإيمان في قلوبكم﴾ ١٤ سورة الحجرات.

وقال الشاعر:

فـإنْ كنت مـأكـولاً فكن خـيرُ آكـلٍ   وإلاّ فـأدركْـني ولمـا أُمَـزَّقِ

إنّ «لمّا» هذه اوشكت ان تزول في العربية المعاصرة، وان المعربين، لجهلهم لخصوصيتها المفيدة، ذهبوا الى توليدهم الخطأ، وهو استعمال «لم» يليها «بعـد»، وهذا مولّد لا تعرفه العربية.

وقد يسوقنا الكلام على «لما» هذه النافية ذات الخصوصية في النفي، والجازمة، الى الكلام على «لما» الظرف المفيد للشرط ولكنها لا تجزم، ولا بد ان يكون فعـل الشرط معها ماضياً مثبتاً، وجواب الشرط يكون إما ماضياً مثبتاً أو ماضياً منفياً أو مضارعاً منفياً بـ«لم»، وهذه تحوله الى المضي، قال تعالى:

﴿لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخِزي﴾ ٩٨ سورة يونس.

﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يُغني عنهم من الله من شيء﴾ ٦٨ سورة يوسف.

ولك ان تقول: لما كنت قائماً بالقسط لم يذهب عنك حقّك».

وقد جاء الجواب أيضاً جملة اسمية مقترنة بـ«اذا» للفجاءة، قال تعالى:

﴿فلمّا نجيناهم اذا هم ينكُثون﴾ ٥٠ سورة الزخرف.

غير ان المعاصرين قد جهلوا هذه الحدود فتجاوزوها الى الخطأ الذي لم تعرفه العربية، فقالوا مثلاً: «لما كنت حازماً تدرك ما تصبو له»، والجواب فيها مضارع، وربما أدخلوا الفاء على هذا المضارع في قولهم: «كنت حازماً فتدرك ما تصبو له».

أقول: والذي قدّمت من خصوصية جواب «لمـا»، وهو مـا ورد في الكلام

الفصيح في الآيات الكريمة وفي غيرها من كلام العرب هـو الفصيح الجيـد، وهو حسـن، أما استعمالُ المعاصرين فخطأ، وخطؤه يحمل الضيم على الجملة فيبدو خللها وضعفها.

ثم أتحول الى «لن» النافية الناصبة التي تخلّص مدخولها الى الاستقبال نحو قوله تعالى: ﴿لن نبرح عليه عاكفين﴾ **٩١** سورة طه، وهي لا تفيد التأبيد المطلق خلافاً للزمخشري الذي حملها على التأبيد المطلق، ولا أدري كيف جاز هذا له، وان النفي فيها مقيد أحياناً بمستقبل قريب كقوله تعالى: ﴿فلن أكلّم اليوم انسيا﴾ **٢٦** سورة مريم، وكقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبّون﴾ **٩٢** سورة آل عمران.

غير ان المعاصرين جهلوا خصوصية «لن» في إفادتها نفي المستقبل وحدّ هذا المستقبل، واستعملوها لنفي المستقبل إرادة التأبيد فقالوا مثلاً: لم أفعل ذلك ولن أفعله.

ومن «الاشتات» التي عرض لها العبث في استعمال المعاصرين الـظرف «إذ». قال النحاة: انه ظرف لما مضى من الزمن، كقـوله تعـالى: ﴿وإذ ابتلى ابراهيم ربُّه﴾ **١٢٤** سورة البقرة. وقد يلي هذا الظرف فعل مضارع معناه المضيّ كقوله تعالى: ﴿وإذ يرفـع ابراهيم القـواعدَ من البيت واسمـاعيل﴾**١٢٧** سـورة البقرة. وقالوا: ويخلص الى المستقبل، وهو قليل نادر، كقوله تعالى: ﴿فسوف يعلمون إذ الاغلال في اعناقهم﴾ **٧٠** غافر. وقد اجتهد في هذه الآية أهل العلم بلغة القرآن فذهبوا الى أن «اذ» باقية في اختصاصها بالمضي، وانها في هذه الآية داخلة على فعل ماض، والتقدير: اذ كانت الأغلال في أعناقهم...

أقول: وهذا كله قد غاب عن المعاصرين فأنت تجد من أقوالهم مثلاً: ويحصل إذ يكون الرجل قد حضر... وهذا كثير، كما يستعملون «إذ» في وجهها الصحيح، وكأنها تصلح في هذا وذاك.

خاتمـة :

هذه «أشتات» رأيت أن أبسطها في هذا الموجز مشيراً الى تجاوز المعاصرين في استعمالها، فقد توسعوا في الاستشهاد بالآي الكريم حتى أخرجوه عن حدّه فأساءوا، وربما حسبوا ما لم يكن قرآناً شيئاً منه.

وقد تجاوزوا أصول العربية في الاستعمال في طائفة من المواد، وليس لنا أن نحمل هذا التجاوز على التطور الذي شُغلنا به في عصرنا.